الرياض

الجامعة العربية ولَمّ الشمل العربي

حمد بن عبدالله اللحيدان

في هذا العام تكمل الجامعة العربية عامها الثامن والخمسين من عمرها المديد حيث تم إنشاؤها في عام 1945م من قبل سبع دول عربية في مقدمتها المملكة العربية السعودية وقد تعددت الآراء واختلفت الاجتهادات حول الجامعة العربية كمنظمة إقليمية دولية من حيث الكم والكيف في إنجازاتها ومن حيث تحقيقها للتطلعات والآمال المعقودة عليها عند تأسيسها أو تلك التي واكبت مسيرتها الطويلة والتي ارتبطت بوجدان وذهن الشعوب العربية. وعلى الرغم من أن إنجازات تلك الجامعة جيدة في المجمل العام والتي ربما يكون أهم تلك الإنجازات هو صمودها كرمز وشعار يعبّر عن وحدة الأمة العربية إلا أنها لم ترق إلى المستوى المطلوب منها جماهيرياً وربما يكون السبب هو عدم استطاعة تلك المنظمة تجاوز حدود تناقض واقع العالم العربي واختلاف مشارب اتخاذ القرار فيه ناهيك عن ضعف ميثاقها العتيق . وعلى العموم فإن الأمة العربية وتطلعها إلى ماضيها المجيد الذي تطور ثم تدهور خلال العصور الماضية فمن الناحية التاريخية كان العرب قبل البعثة النبوية مجرد قبائل متفرقة تقطن الجزيرة العربية وأطرافها وبعد انتصار رسالة الإسلام تحول هؤلاء البدو الرحل إلى أمة موحدة لها هدف محدد هو نشر الدين الإسلامي ومعها اللغة والثقافة العربية ناهيك عن هجرة كثير من العرب من موطنهم الأصلي وانتشارهم في تلك البلاد الجديدة والتمازج مع شعوبها من خلال التزاوج ،وظلت الدولة العربية الإسلامية الموحدة لمدة تربو على ثلاثة قرون دولة مركزية قوية ثم بدأت تلك الدولة في الانفصال والتفكك إلى عدد من الدول الإسلامية والتي توالت عليها الحروب المضادة مثل غزو المغول لعقر الدولة الإسلامية في العراق والشام ثم تلتها الحروب الصليبية مما أضعف تلك الأمة .وبعدها تم ضم تلك المنطقة إلى الدولة العثمانية حيث أصبحوا من التخوم والحواشي وليس من صلب الدولة وركيزتها وبعد ذلك جاء الاستعمار الغربي حيث تقاسمت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى.

لكن تلك الأمة ظلت تربطها أواصر اللغة والدين والأرض والمصير المشترك لذلك تحركت الشعوب العربية ضد الاستعمار وبدأت المقاومة فشهدت كل من العراق وسوريا ومصر وفلسطين والمغرب ثورات وانتفاضات مستمرة للتخلص من السيطرة الاستعمارية بينما قاد الملك عبدالعزيز رحمه الله قبل ذلك التاريخ وخلاله شعب الجزيرة العربية نحو الوحدة وبناء دولة عصرية قوية هي المملكة العربية السعودية التي دعت إلى وحدة العالم العربي والإسلامي ودعم الجهاد والنضال للشعوب العربية المختلفة وفي مقدمتها فلسطين وقد تجسد ذلك من خلال دعوته لعقد أول مؤتمر إسلامي في مكة المكرمة عام 1945م وكذلك تأييده لإنشاء الجامعة العربية التي تم التوقيع على إنشائها عام 1945ميلادية والتي جاءت نتيجة للإفرازات التي تلت كفاح الشعوب العربية ضد

الاستعمار ودخول العالم العربي الحرب العالمية الثانية دون أن يكون له فيها ناقة ولا جمل وحيث أن العالم العربي يشكل أهمية استراتيجية بموقعه الجغرافي الخطير وأنه يشكل وحدة اقتصادية واستراتيجية وجغرافية واحدة ناهيك عن تزايد نشاط الهجرة اليهودية المكثفة إلى فلسطين فقد مر مشروع إنشاء الجامعة العربية بعدة مراحل بدءاً من نقطة البداية المتمثلة بتودد بريطانيا إلى العالم العربي ومحاولة تخفيف حدة العداء العربي لها والسعي إلى استمالة الدول العربية إلى جانبها خلال الحرب العالمية الثانية وقد تمثل ذلك بإعلان تعاطف بريطانيا مع فكرة استقلال الدول العربية وترحيبها بأي عمل باتجاه الوحدة العربية ثم تلى ذلك نقطة التفكير التي تمثلت في دعوة عدد من قادة الدول العربية إلى مشاورات ثنائية ودعوات فردية للتضامن والوحدة ثم جاءت المشاورات التمهيدية والتي اتسع نطاقها لتشمل كل الدول العربية المستقلة وقتها وقدعرفت تلك المناقشات التمهيدية باسم مباحثات الوحدة العربية التي تمت في مصر وطرحت خلال تلك المناقشات ثلاثة اتجاهات الأول يدعو إلى وحدة بين كل من سوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين وتكوين دولة واحدة تسمى سوريا الكبرى والاتجاه الثاني نادى باتحاد المجموعة المكونة لسوريا الكبرى مع العراق واستثناء لبنان وعرف هذا الاتجاه باسم الهلال الخصيب. أما الاتجاه الثالث فإنه دعى إلى نوع أشمل من الوحدة يضم الدول العربية كلها وانقسم أصحاب هذا الاتجاه إلى فريقين فريق ينادي باتحاد كونفدرالي بين هذه الدول والفريق الآخر ينادي بشكل وحدوي يجمع بين رحابة الدول العربية ويدعم التعاون بينها في سائر المجالات وفي نفس الوقت يحافظ على سيادة كل منها واستقلاله .وبعد مداولات ومناقشات بين أصحاب هذه الاتجاهات الثلاثة حول مفهوم الوحدة العربية وبعد عدول أصحاب فكرة سوريا الكبرى والهلال الخصيب عن مشروعيهما، اتفقت الحكومات العربية حول مفهوم الوحدة الشاملة الذي أخذ اتجاهين أحدهما يدعو إلى وحدة كنفدرالية له سلطة عليا والثاني اكتفى بالدعوة إلى شكل يسمح بالتعاون الوثيق بين الدول العربية مع المحافظة على استقلال وسيادة كل منها ولقد حظي الأخير بالإجماع وقد كان هناك عدة أسماء مقترحة لهذه المنظمة الوليدة مثل (التحالف العربي) والآخر (الاتحاد العربي) وثالث هو (الجامعة العربية) وأخيراً وافقت وفود الدول العربية على الاسم الأخير بعد تعديله من الجامعة العربية إلى جامعة الدول العربية.

وبعد موافقة الجميع على مسمى جامعة الدول العربية قام ممثلو الحكومات العربية الذين حضروا اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام بالاسكندرية بإصدار إعلان عرف باسم بروتوكول الاسكندرية والذي يعتبر أول وثيقة للجامعة والذي حددت فيه الخطوط العريضة للتنظيم العربي الجديد ثم تلا ذلك إعداد ميثاق الجامعة العربية الذي بني على أساس بروتوكول الاسكندرية والتعديلات والاقتراحات التي أدخلت عليه من قبل الدول العربية أما الميثاق فإنه صدر وهو يتكون من ديباجة وعشرين مادة وثلاثة ملاحق الأول خاص بفلسطين والثاني يخص الدول العربية غير المشتركة في مجلس الجامعة في ذلك الوقت. والملحق الثالث خاص بتعيين أول أمين عام للجامعة والذي كان عبدالرحمن عزام الوزير المفوض في وزارة الخارجية المصرية لمدة سنتين.

وعلى العموم فإنه بالرغم من مرور 58سنة على إنشاء جامعة الدول العربية إلا أنها لازالت تحتفظ بميثاقها دون تغيير أو تطوير وإن كانت قد أضافت بعض الوثائق على شكل اتفاقيات ومعاهدات وقرارات. وبعد هذا العمر المديد لهذه المنظمة الاقليمية الدولية تظل الجامعة العربية عبارة عن هيئة للتعاون الاختياري بين الدول الأعضاء ذلك أن قرارات الجامعة تعتمد على قاعدة الإجماع ولا تلزم إلا الدول التي توافق عليها فقط ولا تصبح لها قوة تنفيذية إلا إذا اتخذت الدول التي توافق عليها الاجراءات التشريعية اللازمة لتنفيذها.

كما أن مصدر الضعف الآخر للجامعة العربية هو غياب فكرة التحكيم الإجباري من اختصاصات الجامعة لفض المنازعات التي قد تنشأ بين الدول الأعضاء. وعلى الرغم من المحاولات المستمرة لتعديل ميثاق الجامعة العربية والمناداة بفكرة إضافة التحكيم الإجباري إلا أن هناك قوى تعمل على أن تبقى تلك المنظمة بمثابة هيئة للتعاون الاختياري أي جسم بلا روح محدود الفعالية. فعلى سبيل المثال في حالة حدوث نزاع بين دولتين من دول الجامعة أو بين دولة من دول الجامعة وأخرى خارجها فإنه لا يحق لمجلس الجامعة التدخل بالوساطة والتوفيق بين هذه الدول إلا إذا طلبت تلك الدولة ذلك من مجلس الجامعة كما أن قرارات المجلس في حالة الوساطة حتى إذا طلبت منه أطراف النزاع التدخل - ليست ملزمة لتلك الأطراف إلا إذا وافقت تلك الأطراف عليها أي أن قبول قرارات المجلس في حالة الوساطة هو شرط تنفيذ هذه القرارات من قبل الأطراف المتنازعة وهذا على عكس ما هو

معمول به في ميثاق الأمم المتحدة الذي وضع نظاماً لفض المنازعات بالطرق السلمية له كثير من صفات الإلزام حيث تشمل المادة 33منه على تدابير متنوعة عسكرية وغير عسكرية. لذلك فإن الدعوة إلى أن تتبنى الجامعة العربية نظاماً شبيهاً أو قريباً من نظام الأمم المتحدة لفض المنازعات بالطرق السلمية يصبح في هذا الوقت أكثر الحاحاً من أي وقت مضى.

ومن ناحية أخرى يعاني ميثاق الجامعة العربية من عدد من الثغرات مثل عدم تحديد مفهوم للعدوان ووجوب الإجماع في اتخاذ القرارات والتي تعني أن كل دول لها حق الفيتو ذلك أنه إذا اعترضت أي دولة على أي قرار فإن هذا يمنع صدوره. ومن المشاكل الأخرى التي تعاني منها الجامعة العربية أن المنظمات العربية المتخصصة تتمتع طبقاً للمعاهدات المنشئة لكل منها بشخصية مستقلة أو شبه مستقلة عن الجامعة العربية وتتفاوت تلك الدرجة من الاستقلالية من منظمة إلى أخرى ليس هذا فحسب بل إن المنظمات العربية المتخصصة والتي يربو عددها على عشرين لم تستطع تحقيق كل ما تصبو إليه من أهداف نظراً لحداثتها من ناحية وضعف الاهتمام بفكرة التكامل العربي حتى الآن كما أن عدم وجود أداة للتنسيق بين نشاطات تلك المنظمات فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين النشاطات التي تقوم بها أجهزة الجامعة العربية من جهة أخرى يجعل هناك كثيراً من العمل وقليلاً من الإنجاز. على عكس ما هو قائم مثلاً في منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها العالمية المتخصصة.

وهذا يعني أن الصلة القانونية بين جامعة الدول العربية وبين المنظمات المتخصصة لا يحكمها إطار قانوني واحد ولا قاعدة موحدة على الرغم من أن مجلس الجامعة اتخذ عدة قرارات عام 1972م يقضي بإشراف مجلس الجامعة على تلك المنظمات من الناحية الفنية والمالية إلا أن الحبل لايزال على الغارب فكل يعمل على شاكلته.

وغني عن القول أن هناك عدداً من المنظمات التي أقرت من قبل مجلس الجامعة العربية لكنها لم تخرج بعد إلى حيز الوجود مثل منظمة العدل العربية ومؤسسة الخطوط الجوية العربية العالمية والمعهد العربي لبحوث البترول والهيئة السينمائية العربية المشتركة، أما المنظمات العاملة والتي قد حققت بعض الإنجازات فيمكن أن نذكر منها:

-1منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول ومقرها الكويت.

-2المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومقرها تونس.

-3المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ومقرها الرباط (المغرب.(

-4المنظمة العربية للتنمية الزراعية ومقرها الخرطوم (السودان.(

-5المنظمة العربية للتنمية الصناعية ومقرها في بغداد (العراق.(

-6منظمة العمل العربية مقرها المؤقت بغداد (العراق.(

-7المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ومقرها عمان (الأردن.(

-8المنظمة العربية للثروة المعدنية ومقرها الرباط (المغرب.(

-9المنظمة العربية للعلوم الإدارية ومقرها عمان (الأردن.(

-10صندوق النقد العربي ومقره أبوظبي (الإمارات.(

-11المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا ومقره الخرطوم (السودان.(

-12المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية ومقرها الرياض (السعودية.(

-13الاتحاد العربي للمواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية ومقرها بغداد (العراق.(

بالاضافة إلى عدد من الاتحادات والمنظمات والمراكز التي بعضها يعمل وبعضها لم يخرج إلى حيز التنفيذ أو مشلول الفعالية.

وبعد هذه المقدمة التعريفية المختصرة عن جامعة الدول العربية يجب أن نشير إلى أن تلك الجامعة قد أدت بعض ما يجب عليه من التزامات تجاه العمل العربي المشترك ولكنها ظلت مثل الرجل المريض الذي لا يستطيع القيام بواجباته كما يجب وأعتقد ان السبب هو نظام الجامعة العربية وميثاقها العتيق الذي وضع أبان حقبة تاريخية عصيبة من عمر الأمة العربية.

إن العالم العربي اليوم غير العالم العربي بالأمس فاليوم يشكل العالم العربي قوة اقتصادية وجماهيرية وعسكرية بل ان موقعه يشكل نقطة ارتكاز استراتيجي عالمي يحسن بهذه الأمة الاستفادة منه لذلك فإن الأمل معقود على مؤتمر القمة العربية الذي سوف يعقد في أواخر شهرمارس القادم في مملكة البحرين الشقيقة والذي ربما يكون أمامه ثلاث مهام جوهرية هي-:

-1النهوض بدور الجامعة العربية وإعادة هيكلتها وإعادة كتابة ميثاقها بصورة عصرية أكثر حيوية وبما يتوافق وتطلعات هذه الأمة وواقعها المعاصر وبما يجعلها منظمة قادرة وفاعلة على غرار منظمة الوحدة الأوروبية ومنظمة الأمم المتحدة بهيئاتها ومنظماتها المختلفة وغيرها من المنظمات الأكثر فعالية على أن يكون للجامعة العربية دور أكبر من مجرد هيئة للتعاون الاختياري وأن يفعل دورها في حمل الرسالة العربية إلى أمم الأرض خصوصاً بعد أحداث 11سبتمبر وانطلاقة حرب الإرهاب وحشد الجيوش لغزو المنطقة العربية تحت مبررات وأسباب واهية تكيل بأكثر من مكيال فكوريا لها مكيال وإسرائيل لها مكيال والعراق لها مكيال مختلف فهو الوحيد الذي يستحق الموت على شيء لم يثبت أنه يملكه بينما الآخرون يملكونه ويتفاخرون بملكيته وأعني أسلحة الدمار الشامل.

-2إظهار التضامن العربي الفاعل إلى حيز الوجود وبناء استراتيجية عربية مشتركة خصوصاً أن العالم العربي يشكل واسطة العقد في المنظومة الدولية من حيث الموقع والمنافذ البرية والبحرية والجوية ومن حيث القوة الاقتصادية ومصادر الطاقة ناهيك عن أنه سوق جبارة يحسب لها ألف حساب لو كان له كلمة موحدة واستراتيجية مشتركة.

-3دعم صمود ونضال الشعب الفلسطيني مادياً ومعنوياً وبالوسائل والطرق التي تعيد لهذه الأمة كرامتها التي مرغها اليهود وأعوانهم بالتراب من خلال التبجح والقتل العمد وفي وضح النهار دون خوف أو وجل.

إن الأمة العربية تحتاج هذه الأيام إلى وقفة صادقة مع النفس تتمثل في التجاوب مع مبادرة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني حفظه الله للم الشمل العربي وجعل العمل العربي المشترك أكثر مصداقية ذلك أن تلك المبادرة تأتي هذه الأيام ونحن في أمس الحاجة إلى مثل تلك المبادرة، ذلك أن نجاحها سوف يحفظ ماء الوجه لهذه الأمة لأنها إذا تجاوبت معها فسوف تتخذ من التدابير والإجراءات ما يحفظ الاستقلال والكرامة ومقدرات الأمة. فهل تعيد تلك المبادرة الحيوية والنشاط إلى جامعة الدول العربية التي عاشت منذ إنشائها مثل الرجل المريض الذي ليس حياً فيرجى ولا ميتاً فيرثى.

نعم ان لسان حال الأمير عبدالله يقول: لقد حان للأمة العربية أن تولد من جديد فهي اليوم أكثر وعياً ونضجاً من الأمس وهي اليوم أكثر تعليماً واستقلالاً وهي اليوم أقدر على اتخاذ القرار الصائب والمناسب ناهيك عن أنها اليوم أكثر اتزاناً وعقلانية وانضباطاً وهذا كله يؤهل لميلاد تكتل عربي قوي يواجه عصر التكتلات الاقتصادية الكبرى مثل الاتحاد الأوروبي ومنظمة الدول السبع والكتلة الأمريكية الكندية المكسيكية وتكتل دول جنوب شرق آسيا ناهيك عن منظمة التجارة العالمية التي تتحول يوماً بعد يوم إلى وحش كاسر يفرض العولمة ويلغي التميز، ويخترق الحدود والحواجز ويفرض التبعية ويملي الشروط من موقع القوة وكل ذلك لضمان استمرار احتكار وهيمنة الدول الكبرى وكل ذلك لا يصده أو يردعه إلا منظمات قوية قادرة على المنافسة أو المقاطعة ناهيك عن أن ذلك يمنع تفرد العدو بهم والقضاء عليهم واحداً تلو الآخر وحتى لا يقول أحد أكلت عندما أكل الثور الأبيض

كما تقول القصة الشعبية خصوصاً ونحن نعيش مرحلة حرب الإرهاب والتي وجهت ضد العرب بصورة خاصة والمسلمين بصورة عامة ليس هذا فحسب بل إننا اليوم نرى المنطقة تدخل في نفق مظلم تحيط به الجيوش بعددها وعتادها ومخططاتها المعلنة والمخفية.

سدد الله خطى العاملين المخلصين والله المستعان.